الفصل الثالث
٣ - ذكريات وشجون تربوية

● لقد طوّف بنا أستاذنا الرائد الشيخ محسن أحمد باروم فى موكب الزمن مع ذكرياته وشجونه التربوية بمقدرة فنية فائقة تعبيراً وتصويراً، وبمهارة نادرة فى وصف تجاربه الحيوية مع العلم والتعليم والتفاعل الحضارى مع الثقافات الأخري وأخذ الحكمة التى هى ضالة المؤمن يسعى إليها (أنى وجدها فهو أولى بها) كما علّمنا الهدى النبوى الشريف.

– وفى صحبة الشيخ الأديب وببيانه الرائع كدنا نرى رأى العين صوراً من الحياة الاجتماعية فى مكة المكرمة أم القرى التى ولد فيها وشبَّ وترعرع فى ربوعها، وقد تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى فى مدرسة الفلاح فى جوار البيت الحرام فى ظروف اقتصادية صعبة مع بوادر الحرب العالمية الثانية وإبّانها، مما انعكس على حركة الملاحة والسفر ووصول الحجيج وبخاصة من جنوب شرق آسيا.

– وقد اتسم بيانه فى تسجيل ذكرياته وشجونه التربوية بالأمانة الشديدة والدقة الفائقة والتواضع الكبير وإعطاء كل ذى حق حقه، مع جملة من القيم المربية كالوفاء والأمانة العلمية والصدق والإخلاص والتسامح وإنصاف الآخر بأسلوب قصصى جذاب.

– وعشنا معه مسافراً فى طلب العلم الجامعيّ فى القاهرة أواسط الأربعينيات الميلادية، ورأيناه يختلف إلى دروس العلم فى كلية اللغة العربية فى رحاب الجامع الأزهر، يتابع الحركة العلمية فى مختلف الجامعات المصرية، ولا يكاد يفوته شئ من النشاط العلمى أو الأدبى فى محافل القاهرة ومنتدياتها الثقافية حينذاك.

– وبعد تخرجه فى كلية اللغة العربية صحبناه فى عمله الإذاعى فى مديرية

الإذاعة السعودية عام ١٣٦٩ هـ مذيعًا فمذيعًا أول ثم مفتشًا للغة العربية ومفتشًا أول فى مديرية المعارف السعودية قبل إنشاء وزارة المعارف ١٣٧٣ هـ ثم رئيسًا للتفتيش الفنى الذى صار (التوجيه التربوى) فيما بعد ثم مديرًا للتعليم الابتدائى والثقافة الشعبية ثم مديرًا للتعليم الثانوى فمشرفًا على التعليم الفنى بأنواعه الثلاثة ثم مديرًا للتعليم العالى واضطلاعه بالإشراف على طلاب البعثات العلمية فى أوربا مستشارًا ثقافيا مقيمًا فى جنيف لثلاث سنوات، تواصل خلالها مع الجامعات الأوربية والهيئات العلمية والتربوية التابعة للأمم المتحدة التى يضطلع بها مكتب التربية الدّولىّ فى جنيف وقد حضر أديبنا مؤتمراته فى أصياف (١٩٦١، ١٩٦٢، ١٩٦٣) الميلادية كما شارك مع بقية أعضاء الوفد السعودى الممثلين لوزارات الدولة وهيئاتها ذات الصلة بالموضوع فى المؤتمر العالمى (العلم والتكنولوجيا وتطبيقهما) لصالح الدول النامية، الذى انعقد فى جنيف فى الرابع من نوفمبر لعام (١٩٦٣م) والذى كان فرصة عظيمة لبحث أفضل وسائل التعاون الدولى لتقوية التفاهم وروابط الإخاء بين الشعوب بواسطة: «تبادل الزيارات بين العلماء وقادة المؤسسات العلمية والمهنية، وإتاحة فرص التدريب للناشئين من العلماء وأبناء الدول النامية فى الخارج والإسهام فى تدعيم المؤسسات التى تضطلع بألوان من البحث العلمى لتمكينها من القيام برسالتها العلمية أكمل قيام» (١).

– ثم عاد الأستاذ ليتولى إدارة التعليم العالى، وسرعان ما يُستدعى بتكليف من وزير المعارف آنذاك الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ للمشاركة فى وضع مشروع جامعة الملك عبد العزيز الأهلية بجدة، وليكون أول أمين عام لهيئتها التأسيسية (١٣٨٥ هـ)، وهو خلال ذلك يقدم المشورة ويضع الخطط، ويكتب التقارير العلمية ويؤلف الكتب الدراسية التى زادت عن العشرين كتابًا دراسيًا فى قواعد اللغة العربية وآدابها لمختلف مراحل التعليم مع نخبة من زملائه

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٢.

المربين، والتى ظلت تُدرّس فى مدارس المملكة العربية السعودية ومعاهد المعلمين والمعلمات ما يربو على العشرين عاما، تبنى العقول وتهذب الوجدان وترتقى بالأخلاق، مما جعل أستاذنا حَريًّا بوصف أمير الشعراء فى وصف رسالة المعلم الصالح حين قال:

أرأيت أشرفَ أو أَجَلَّ من الذى يَبني ويُنشئ أنفسًا وعُقولاً

– كما شارك الغير فى تحرير الكتب والدراسات، ومنها دراسته فى العدد (١٤٤) من سلسلة (دعوة الحق) مع الكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد محمد جمال وعدد من الكتاب، كما تفضل بالدعوة لتأليف كتاب عن العلامة الدكتور زكى على كعَلَم من أعلام الدعوة الإسلامية والدفاع عن الإسلام والعرب وقضاياهم فى جنيف بقلب أوربا لما يزيد عن سبعين عامًا، وقد جاءت دعوته تلك فى مقالته جليلة الأثر التى نشرت فى صحيفة (المدينة) السعودية الغراء فى يوم الخميس [٢١/٥/١٤١٧ هـ الموافق ٣/١٠/١٩٩٦م] واستجاب لها كاتب هذه السطور وتوفر لتحرير كتابه (من أعلام الدعاة فى أوربا – العلامة الدكتور (زكى على) بعون ومشاركة الشيخ محسن أحمد باروم الذى تكفّل بطبعه ونشره بدار النشر (عالم المعرفة) بجدة، وهى داره الزاخرة بالحيوية والعطاء العلمى البناء؛ لتحقيق النهضة العلمية والحضارية المأمولة لأمتنا التى تتوق إليها البشرية بعد غلبة الحضارة المادية وسيادة شريعة القرصان والعربدة والاستكبار.

● وأستاذنا الشيخ محسن باروم وإن كان قد اكتفى فى كتابه هذا (فى موكب الزمن – ذكريات وشجون تربوية) بتقديم شهادته على النهضة التربوية والعلمية والإجتماعية من خلال مشاركته الوظيفية الفاعلة فى العمل الوظيفى بقرابة ربع القرن إلا أن نشاطه فى خدمة الوطن والأمة والدعوة الإسلامية والعمل الخيرى بعد تركه الخدمة الحكومية لا يقل أثرًا وثراءً فى نهضة الوطن والأمة بالمشاركة فى نشر الكتاب الإسلامى بإنشاء (دار الشروق) للنشر والتوزيع

بجدة (١٣٩٣ هـ) للعناية بالتراث والأدب الإسلاميين، ثم أردف ذلك بإنشاء دار نشر أخرى للعناية بالعلوم وتطبيقاتها التقَنيِّة أسماها (عالم المعرفة) ، وكذلك حضوره الفاعل فى الندوات العلمية للكتاب والصحافة الإسلامية ونشاطه فى خدمة الدعوة الإسلامية ومؤسساتها الخيرية والتعليمية والاجتماعية فى آسيا وأفريقيا، وهى أمور وأعمال جليلة الأثر والخطر لم يعرض لها أديبنا فى كتابه الذى نحن بصدده؛ لأنه يقصره على فترة الخدمة بالعمل الوظيفى وصور ومواقف وذكريات مما عايشه خلالها، يقدمه للدرس والعظة والعبرة .

● ولا غرو أن يكون للكتاب والمكتبة فى حياة أستاذنا أجل مكان وأسمى منزلة، حتى إنه يعايش الكتب فى مكتبته الخاصة معايشة الأصدقاء الأوفياء، وكيف لا وهى تحوى عصارة الأدمغة وذوب القلوب، وحيوات البشر والأمم وأسرار الجمال فى الكون والحياة، وأسباب السعادة والقوة والمجد، وتنطق بالحق والخير والجمال، ولهذا وجدنا لشيخنا منذ كان فتى حجازيًا مكيا، وجامعيا قاهريًّا وموجهًا تربويا ومستشارًا ثقافيا فى أوربا وجدنا له كلفًا بالكتاب كلف المحب (بغزال ذى هَيَف) وبخاصة إذا كان الكتاب مثيراً للجدل والمعارك الفكرية ومن هذا ما يقصه علينا فى هذه الواقعة القاهرية .

لقاء مع المستشرق هاملتون جب :

– يحكي صاحبنا الجامعيّ القاهريّ تلك الواقعة وقصة ذياك اللقاء فيقول : « لقد كان نظام الحياة فى دار البعثات السعودية بالقاهرة أن يصرف لكل طالب فيها سنويًا بدل كتب لشراء المصادر والمراجع العلمية التى يحتاجها فى فهم مواده الدراسية، فكنت أستغلُّ هذا المال فى شراء أمهات كتب الأدب والتراث العربى وأزيدُ عليه مما يرسله أهلى، فأخذت فى السنوات الأربع التى قضيتها فى دار البعثات أقتنى كثيراً من مصادر التراث الفكرى العربى القديم والحديث أن ذهبت مرة إلى مكتبة (العرب) لصاحبها البستانى فى الفجالة، أسأل عن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق إن كان موجوداً أم لا؟ فتصدى لى

رجل جالس بجوار صاحب المكتبة يسألنى عن السبب فى شراء هذا الكتاب الذى حُورب مؤلفه وقت صدوره وصدر الحكم عليه بمصادرة كتابه وتجريده من ألقابه العلمية، وشرعت أتجادل مع ذلك الرجل إلى أن رجانى الدخول إلى المكتبة لمواصلة الحديث معه وفعلاً جرى الحديث سجالاً معه، مما دفعنى فى نهاية المطاف إلى أن أسأله عن اسمه وهويته الشخصية، فأجابنى إلى أنه السيد هاملتون جب المستشرق البريطانى الشهير، وأنه قد حضر إلى القاهرة لحضور الدورة الجديدة لمجمع اللغة العربية، فأبديت سرورى بلقائه ثم ودعته دون أن أحصل على ذلك الكتاب لنفاده من أسواق الكتاب العربى بالقاهرة» (١).

– أما حب شيخنا الأديب لمكتبته واعتزازه بها فيتجلى فى هذه الفقرة المؤثرة: «... وهكذا تكونت لى مكتبة طيبة حاولت جهد الطاقة تنتميتها أثناء اشتغالى بالخدمة الحكومية فى مكة والرياض وجدة، مما دفعنى إلى كتابة وصية لأبنائى أوصيت فيها الاحتفاظ بمحتويات المكتبة وعدم التصرف فيها بالبيع والرهن وإنما هى تراث يتداوله الأحفاد جيلاً بعد جيل حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها، فإذا سئم جيل منها فإن عليه إهداءها لمكتبة مدرسة الفلاح بمكة، لتنضمَّ إلى نظائرها هناك وعلى الله قصد السبيل ومنه أستمدُّ العون والتوفيق» (٢).

* * *

(١) المصدر السابق ص ٤٨.

(٢) السابق ص ٤٨.